

فكرة الوطنية عند الشيوعيين بالجزائريين الإثبات والنفي 1936-1920 .

خيثر عزيز

جامعة محند آكلي أولحاج – البويرة .

البريد الالكتروني: azizkhitgergeo@gmail.com

مقدمة :

على الرغم من أن الظهور الأول للشيوعيين السياسيين الأوروبيين بالجزائر كان مبكرا منذ مطلع القرن العشرين إلا أنهم انتظروا إلى غاية منتصف الثلاثينات حتى يؤسسوا حزبهم السياسي المستقل " عن الحزب الشيوعي الفرنسي بالميتروبول ، متأخرين بذلك عن بقية الأحزاب السياسية الجزائرية التي كانت تتشكل منها الحركة الوطنية بالجزائر .

إن الهدف من هذه الدراسة هو ليس التأريخ للبداءات الأولى للشيوعية في الجزائر ، كما لا تسعى لتتبع الإرهاسات التي سبقت تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري ، وإنما الوقوف عند مسألة مهمة و حساسة مرتبطة بتاريخ هذا التيار السياسي تسمح بأخذ فكرة و صورة عن طبيعة توجه هذا التيار و نظرتة للمشكل الجزائري انطلاقا من تتبع موقفه من فكرة "الوطنية الجزائرية" خاصة في المرحلة التي سبقت انفصال الشيوعيين السياسيين بالجزائر عن الحزب الشيوعي الفرنسي أي من 1920 إلى 1936 ، و هي الفترة التي عرفت فيها الجزائر زخما كبيرا في الحياة السياسية و الثقافية و الاجتماعية كان من أبرز نتائجها و مظاهرها هو بداية تشكل الخريطة السياسية في الجزائر و اتضاح معالمها الكبرى .

لقد كانت كل الأحزاب السياسية الجزائرية تعمل جاهدة من أجل إثبات الصفة "الوطنية" على تنظيمها حتى تضمن لنفسها مكانا في الأوساط الشعبية و تكسب قاعدة جماهيرية تمكنها من توسيع آفاق عملها و تساعد على تحقيق الأهداف التي تأسست

من أجلها و المبادئ التي كانت تؤمن بها ، لذلك كانت تجتهد و تتنافس فيما بينها لتقديم نفسها بأنها المعبر الوحيد أو الحقيقي للوطنية الجزائرية .

لقد كان الشيوعيون بالجزائر من الأوائل الذين حاولوا ارتداء هذه العباءة و لعب هذا الدور ، لإدراكهم بأن النجاح الحقيقي في نشاطهم السياسي و تجذيرهم في الأوساط الشعبية لا يمكن أن يتأتى بالعمل بعيدا عن هذه الفكرة ، لكن المشكلة التي اصطدم بها هؤلاء الشيوعيين هو تعارض هذه الفكرة مع توجههم الإيديولوجي الذي لا يؤمن بمثل هذه الأفكار التي تحل محلها في قاموسهم السياسي مفاهيم و مصطلحات أكبر منها مثل الأممية ، العالمية ... ، الأمر الذي جعلهم في مأزق شديد و اختبار صعب بعدما بات عليهم الاختيار بين التمسك بقناعاتهم الشيوعية العالمية التي كانوا يدركون نفور الأهالي منها لاعتبارات عديدة ، أو التضحية بهذه القناعات و تبني المطالب و الآمال الوطنية للجماهير التي كانوا يخطبون ودها و يسعون لكسبها ، و مما زاد من تعقيد الأمر على الشيوعيين هو تزامن ظهورهم مع صعود الوطنية الجزائرية بعد الحرب العالمية الأولى في شكلها السياسي المنظم .

إن الإشكال الذي يطرح نفسه هنا قبل السؤال عن موقف الشيوعيين من القضية أو الفكرة الوطنية الجزائرية ، هو إلى أي مدى استطاع هؤلاء الشيوعيين التوفيق في عملهم بالجزائر بين قناعاتهم الشيوعية و الآمال الوطنية للجماهير الأهلية ؟ و هل استقلالهم عن الحزب الشيوعي الفرنسي كان له أثر على موقفهم و نظرتهم من هذه الفكرة ؟ .

1 - مفهوم الوطنية عند الشيوعيين الجزائريين :

إن ما تجدر الإشارة إليه قبل الولوج في تتبع موقف الشيوعيين السياسيين بالجزائر من فكرة الوطنية الجزائرية هو تحديد مفهوم "الوطنية" عند الشيوعيين ، و بالعودة إلى المرجعيات الفكرية للشيوعية لا نجد هذا اللفظ في القاموس الشيوعي أين يحل محله لفظ "العالمية" و هي ما تسعى الشيوعية إلى تحقيقه ، بحيث تعمل جاهدة

على إذابة الوطني أو القومي في العالمي بمعنى احتواء الحركات الوطنية¹. وهذا التحديد في نظري ضروري لفهم أكثر وأوضح لموقف الشيوعيين من هذه القضية.

إن تتبع الخط الإيديولوجي للشيوعيين بالجزائر و موقفهم من فكرة الوطنية أو القضية الوطنية بشكل عام يسمح بالوقوف على مدى غموض و تذبذب هذا الموقف ، و كثرة تقلباته ، و هي الحقيقة التي تحضى بإجماع غالبية المؤرخين و الباحثين الجزائريين و الفرنسيين على السواء ، و حتى من بعض المؤرخين الشيوعيين². فهو تارة ينفي الوطنية الجزائرية و يؤكد تارة أخرى ، يدعو للثورة ثم يدعو للإدماج ، يتعاون مع الوطنيين و الإصلاحيين ثم يعاديه ، يدعو للاستقلال ثم يعود ليطالب بالمساواة... ، كل هذا جعل سبر أغوار هذا التيار ليس بالأمر الهين ، لكن أمل أن أساعد في توضيح رؤية هذا الحزب و موقفه من فكرة الوطنية بعرض مثال من تاريخ الحركة الوطنية مع مطلع العشرينات .

لقد خلص الشيوعيون بعد دراستهم للواقع الجزائري إلى وجود نوعين من الوطنية في الجزائر و ميزوا بينهما ، الأولى هي الوطنية المحافظة و الثانية هي الوطنية الاجتماعية و هي التي يدعون إليها و يبشرون بها³ ، أما الأولى فهي التي يدعو إليها ما سواهم من الوطنيين و الاصلاحين و حتى الإدماجين أي "وطنية الأهالي" ، و التي تؤدي حسب زعمهم

¹ لهذا نرى بأنه من الأصلح على الكتابات الجزائرية أن لا تطلق صفة الوطنية على الحزب الشيوعي الجزائري، و اعتباره أحد الأحزاب المشكلة للحركة الوطنية الجزائرية ، و إنما يجب دائما الأخذ بعين الاعتبار الصفة الأومية لهذا الحزب ، لأنه لم يؤمن يوما بوجودها كما سنرى .

² أنظر كل من : محمد حربي : الثورة الجزائرية سنوات المخاض، ترجمة نجيب عباد و صالح المثلوثي، موفم للنشر، الجزائر ، 2006، ص117. و محفوظ قداش : تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية ، ترجمة أحمد بن البار، الجزء الثاني 1939-1951، ط1 ، دار الأمة ، الجزائر ، 2008، ص-ص470-472. ... و

Mohamed Tegui : l'Algérie en guerre , opu , Alger , 2007, p46 .

Charles-Robert Agéron : de l'Algérie Française al'Algérie Algérienne , éditions Bouchene , Paris , 2005 , p326....

³ حسب استطلاع للرأي قام به مندوب الحزب المكلف بالدعاية في شمال إفريقيا السيد شارل آندري جوليان للفيدراليات الشيوعية بالجزائر تبين بأن بعض الفيدراليات رأت بأن الوطنية موجودة فقط عند الأهالي المثقفين ، و وصفوها بأنها قريبة من الوطنية "الفرنسية" و أوصوا نتيجة لذلك بضرورة دعمها و مساندتها .

أنظر : Charles-Robert Agéron : Ibid , p324

إلى الانتكاس ، بينما الثانية التي تدعوا إليها الطليعة (الشيوعيين) فهي تؤدي إلى التطور والارتقاء .

من هذا المنطلق نفى الشيوعيون صفة الوطنية على حركة الأمير خالد التي اعتبروها مجرد معارضة بورجوازية دون أن يكلفوا أنفسهم عناء تبرير حكمهم ، ليكتفوا فقط بالتشهير به ، بيد أنه منذ 1923 غيروا موقفهم منه حيث بدؤوا يتقربون منه و من حركته ، و باتوا يتكلمون باسمه و يعتمدون عليه في دعايتهم باعتباره رمزا للشيوعية ، و حامل لواء التحرر في الجزائر و مثالا للوطنية الجزائرية التي يريدها الشيوعيون ، و لم يتوقفوا عند هذا الحد بل غاصوا أكثر من ذلك و حاولوا الإيهام بأنهم يواصلون عمل الأبطال الوطنيين السابقين أمثال الأمير عبد القادر و المقراني و الحداد ...¹ .

إن هذا التحول في موقف الشيوعيين من حركة الأمير خالد التي نفوا عنها صفة الوطنية في بادئ الأمر ، و نعتوها بالبورجوازية التي كان لزاما عليهم -حسب عقيدتهم- محاربتها ، قاموا بدلا من ذلك بإظهاره زعيما وطنيا . لا يمكن تفسير هذا التقلب في الموقف سوى بمحاولة استيعاب و استقطاب أنصار حركة الشبان التي كان يقودها الأمير خالد بعد نفيه من الجزائر سنة 1923 لاسيما بعد النجاحات الكبيرة التي حققها الأمير خالد في الانتخابات البلدية و المجالس المالية و العامة² ، يضاف لها قيام ثورة الريف بالمغرب الأقصى بزعامة الأمير عبد الكريم الخطابي ، و ضغط الكومنتيرن على الشيوعيين الفرنسيين بضرورة دعمها و دعوة الجنود الفرنسيين إلى التآخي مع المغاربة و عدم حمل السلاح ضدهم ، و قاموا من أجل ذلك بكتابة و توزيع المنشائر بالجزائر العاصمة³ ، و هذا يؤكد بشكل لا يدع مجالا للشك غياب تصور و موقف واضح عند

¹ Charles-Robert Agéron : Ibid, p-340-342. و قاموا بعد 1936 بإطلاق

اسم الأمير خالد على نواديهم بالجزائر .

² حصل الأمير خالد في الانتخابات البلدية لمدينة الجزائر في 30 نوفمبر 1919 على 925 صوت مقابل 332 صوت لمنافسه ابن التهامي ، أما في انتخابات المجالس المالية الجرات في جوان 1920 فانه نال 7000 صوت أما منافسه زروق محي الدين لم يحصل إلا على 2500 صوت ، بينما في انتخابات المجالس العامة فقد تحصل على 2500 صوت مقابل 256 صوت فقط لمنافسه الدكتور تامزالي . أنظر : دويدة نفيسة : المسألة الثقافية في الجزائر من منظور التيار الليبرالي للحركة الوطنية ، رسالة دكتوراه في التاريخ المعاصر ، المدرسة العليا للأستاذة ببوزريعة ، الجزائر ، 2009-2010 ، ص،ص 100،99.

³ محفوظ قداش : ج 1، المرجع السابق ، ص205.

الشيوعيين بالجزائر لمفهوم الوطنية ، و غياب سياسة ثابتة و لو مبدئيا حول القضية الجزائرية ، لتحل محلها الانتهازية و الصيد في المياه العكرة و اقتناص الفرص و المناسبات قدر الإمكان للظهور بالعباءة الوطنية .

إن مفهوم الوطنية الجزائرية عند الأهالي المسلمين كانت أكثر ما يخشاه الشيوعيون لذلك ناصبوا العداء و أنكروا وجودها ، و لما كانت هذه الوطنية كشعور و سلوك حقيقة ماثلة أمامهم أجمعوا على ضرورة محاربتها و وأدها في مهدها لاعتقادهم الراسخ بأن الشيوعية لا يمكن أن يكون لها وجود إلا على جثة الوطنية.

انطلاقا من هذا الأساس قام الشيوعيون في المؤتمر الذي عقده فيدرالية قسنطينة في أكتوبر 1921 تحت إشراف لورانس Laurens بتوجيه نداء إلى باقي الفيدراليات بضرورة شجب و استنكار أي تحريض لفكرة الوطنية¹ . لذلك يعتبر قداش بأن الشيوعيين مع مطلع العشرينات كانوا أكثر التنظيمات معاداة لأي مشروع وطني بحيث بالغوا في إبراز خطورته ليس على الأوروبيين فقط ، و إنما حتى على الأهالي بحيث رأوا في الوطنيين بلاء و وباء على حرية الأهالي ، و صوروهم في صورة هي أشد قسوة و عنفا من الاستعمار².

إن توضيح هذه الفكرة يفرض علينا الوقوف على تحديد مفهوم الوطنية الجزائرية عند الأهالي لملاحظة سبب مناهضة الشيوعيين لها ، و لعل التحديد الذي لا يختلف عليه اثنان من الجزائريين للوطنية هي ذلك الشعور بالانتماء للوطن و حبه و الحنين إليه ، و هو ما يفرض الغيرة عليه و الذود عنه ، و في وضع الجزائر التي كانت مستعمرة فإنه يعتبر وطني كل من ساهم بقول أو فعل عبّر عن خالاه عن رفضه للاستعمار الفرنسي ، و هدف من ورائه يرمي إلى تحقيق الاستقلال ، و لعل أسوأ ما يمكن أن يقوم به الفرد لتأكيد وطنيته هو التضحية بالنفس من أجل وطنه ، و هذا يعني بالنسبة لمجموع الأفراد (المجتمع) القيام بالثورة من أجل استرجاع الحرية التي سلبت منهم ، و في المقابل نجد بأن صفة الثورية هي سمة ملازمة للشيوعية و وسيلتها الفعالة في حربها ضد الامبريالية لتحقيق أهدافها ، و ما دام الحال هكذا ما هو سبب معاداة الشيوعيين الفرنسيين بالجزائر للوطنية الجزائرية ؟.

1. Charles-Robert Agéron : Ibid, p334

2 محفوط قداش : المرجع السابق ، ص193.

إن التوقف عند هذه المسألة بهذا الشكل قد يزيد من الغموض الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ، لذلك لا مناص من الاسترسال في عرض موقف الشيوعيين الفرنسيين من فكرة "الثورة" بالجزائر في الفترة الممتدة من 1920 إلى 1936 لتوضيح الرؤية بصورة جلية.

2 - الشيوعيون وفكرة "الثورة" بالجزائر:

حسب استطلاع للرأي الذي قام به شارل أندري جوليان للفيدراليات الشيوعية بالجزائر سنة 1921 حول احتمال قيام ثورة أهلية بالجزائر تضمن مجموعة من الأسئلة¹ جاء رد كل الفروع متفقا على إمكانية قيام ثورة أهلية مع بعض الشروط على رأسها عدم استعداد الأهالي للتحرر و حكم أنفسهم بأنفسهم ، و هو ما يؤكد إقرار الشيوعيين على الاحتقان الذي كان يعيشه الأهالي جراء السياسة الفرنسية ، لكنهم أجمعوا على سلبية هذا المشروع و حذروا من خطورته بحيث اعتبروه دواء أخطر من الداء ، و وصفوه "بالنكبة" و "الجنون" كما جاء على لسان جريدتهم "الصراع الاجتماعي" في 19 جويلية 1921 .

لقد كان هذا الرد يتماشى و الرد الذي قدموه للكومنتيرن بعد النداء الذي وجهته لهم في 20 ماي 1920 من أجل تحرير الجزائر و تونس ، بحيث أجمعوا على إدانة و شجب هذا النداء ، و قام فرع سيدي بلعباس برفع لائحة احتجاج من خلالها كل الشيوعيين بالجزائر ، و أعلنوا فيها محاربتهم لأي انتفاضة يقوم بها الجزائريون ، و لم يكتفوا بذلك بل أوردوا لائحتهم بجملة عنصرية ضد الأهالي قدمتهم في صورة بشعة جدا جاء فيها: "إن سيادة أكلي لحوم البشر أمر غير مرغوب فيه البتة"².

¹ الفروع المعنية بالاستطلاع هي : سيدي بلعباس ، الجزائر ، البليدة ، العفرون ، وهران ، حسين داي ، و مجموع الأسئلة قسمها آجرون إلى سبعة أسئلة رئيسية تتبعها أسئلة جزئية ، كانت الإجابات عليها متباينة ما عدا تلك المتعلقة "بالوطنية" و "إمكانية قيام ثورة أهلية" كانت الإجابات عليها متطابقة (النفي و الرفض

بالإجماع) . أنظر : Charles-Robert Agéron : Op.Cit, p-p322-329

² شارل أندري آجرون : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة جمال الفاطمي و آخرون ، المجلد 2 ، ط1 ، دار الأمة ، الجزائر ، 2008 ، ص619. إن مثل هذه العبارات النابية و السادية تعود الأهالي على سماعها من غلاة الكولون و ليس ممن يدّعون بأنهم يعملون على تحقيق مطالبهم و يضحون من أجل حريتهم ... !!! .

لقد قبول هذا الرد بسخط و توبيخ كبيرين من الكومنتيرين على هؤلاء الشيوعيين ، أين وصفهم تروتسكي "بأنصار العبودية" ، كما طالب أعضاؤها بإقصائهم ، مما شكل ضغطا على الشيوعيين بالجزائر اضطروا معه إلى التخفيف من عنصريتهم و انحرافهم ، وأصبحوا منذ 1925 يبدون التزاما أكثر بتوصيات الكومنتيرين أين رفعوا بصعوبة¹ جملة من المطالب الراديكالية المعادية للامبريالية من قبيل :

- استقلال الجزائر .

- انتخاب أعضاء جميع المجالس في الجزائر بالاقتراع العام .

- إلغاء المندوبيات المالية و تعويضها بمجلس جزائري تنتخبه هيئة واحدة² .

يذهب محمد تقيية إلى أن تحول موقف الشيوعيين من الثورة و القضية الوطنية الجزائرية يسبق سنة 1926 ، ذلك أن أوامر و توجيهات الحزب الشيوعي الفرنسي كانت تدعو إلى الاستقلال منذ 1924 ، مستشهدا بمقالات جريدة "الصراع الاجتماعي" كالمقال الذي كتب في 6 جوان 1924 و الذي جاء فيه : "إننا لن نتوقف عن المطالبة بالاستقلال التام لكل الشعوب المستعمرة من طرف أي حكومة امبريالية مهما كانت ، و سنحارب من أجل مطالبهم البسيطة حتى و لو لم يكونوا شيوعيين" . و في 19 نوفمبر 1926 كتبت الجريدة أيضا : "إن المطالب الجزئية لا يمكنها تحت أي ظرف أن تخفي الهدف النهائي الذي من أجله نناضل يعني "استقلال الجزائر"³ .

لم يتوقف الشيوعيون عند هذا الحد بل حاولوا قصارى جهدهم إضفاء الطابع الوطني الثوري على نشاطهم و في المقابل نفى عن من سواهم ممن كانوا ينشطون في الساحة الجزائرية ، و كان أول من شنوا حملات انتقاد لاذعة ضدهم جماعة النخبة الليبرالية الاندماجية حيث اعتبروهم معطلين للمشروع الوطني ، و سعوا بكل الوسائل

¹ لم يتمكن الشيوعيون من رفع هذه المطالب إلا بأغلبية طفيفة (28 صوت من أصل 41) في مؤتمر الجزائر المنعقد في 21 فيفري 1926 ، و 14 صوت مقابل 10 في اللجنة الفيدرالية الجزائرية . و في مؤتمر الفيدراليات المشتركة المنعقد بالجزائر في 3 مارس ظهرت نفس المعارضة مما يعكس مدى الاختلاف و عدم التوافق في السياسة الواجب إتباعها إزاء المشكل الجزائري . أنظر : Charles-Robert Agéron : Op.Cit , p342.

² شارل أندري آجرون : نفسه ، ص620.

³ Mohamed Teguia : Op.Cit , p44.

إلى تشويه صورتهم عند الأهالي ، مروراً بالنجميين الذين نعتوهم بالمشاغبيين المتهورين و وصولاً إلى رجال الحركة الإصلاحية الذين و صفوهم بالجمود .

إن التوقف بشكل عابر على هذا الموقف و النظر إلى هذه الأعمال و الدعاية و لائحة المطالب المرفوعة تعطي انطباع قوي على ثورية الشيوعيين بالجزائر و دعمهم للقضية الوطنية ، لكن التأمي و وضع هذه المواقف في سياقها قد يكشف خلاف ذلك ، و لسبر أغوار هذه المواقف يحسن الإجابة على التساؤلات التالية : ما مدى جدية و اقتناع الشيوعيين بهذه المبادئ و المطالب التي كانوا يدعون إليها ؟ و هل فعلاً كان هذا "الحزب" مستعداً لخوض غمار الثورة و المواجهة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي لنيل الأهالي حريتهم ؟ ، أم أنها مجرد شعارات و خطب حماسية الهدف منها إثارة مشاعر الأهالي و خطب ودهم و تعاطفهم مع الحزب ؟ . و في الأخير كيف يمكن للشيوعيين تبرير تزامن هذا التحول الجذري في الموقف من القضية الوطنية مع ضغط الأممية الشيوعية التي كانت تهمهم بمهادنة الاستعمار و "أنصار العبودية" ؟ .

إن دراسة موقف الحزب الشيوعي الجزائري من القضية الوطنية ، و موقف الكومنتيرين من هذا التنظيم قبل هذه الفترة ، و التدقيق في المسار السياسي لهذا الحزب و مواقفه اللاحقة ، تسمح بالوقوف على حقيقة تاريخية مفادها أن هذا الحزب لم يكن مقتنعاً بما كان يدعو إليه لعدة اعتبارات أهمها :

- ضغط الأممية الشيوعية عليه .
- فقدان هذا التنظيم لحرية التصرف و من ثم الأخذ بزمام المبادرة ، بحيث كان يتلخص دوره بالجزائر في تنفيذ و إطاعة الأوامر التي كانت تأتيه من باريس ، و لو كانت مخالفة للكومنتيرين ، كما كان يبني مواقفه في كثير من الأحيان على ضوء العلاقات بين موسكو و باريس¹ .

¹ تخلى الحزب في دعايته كلبية عن فكرة دعم الثورة في المستعمرات الفرنسية سنة 1935 بسبب التقارب بين فرنسا و روسيا عندما جرى لقاء بين ستالين و لافال وزير الخارجية الفرنسي ، أين اتفقا على بعض القضايا التي تهم البلدين ، بعد أن كان سنة 1934 قد شن حملة دعائية واسعة في وسائل إعلامه للتحريض على الثورة ضد الامبريالية الفرنسية . و نفس الموقف تكرّر سنة 1936 عندما تخلى عن أطروحة استقلال الجزائر في الانتخابات التشريعية بحجة ظهور الخطر الفاشستي . أنظر : محفوظ قداش : ج 1 ، المرجع السابق ، ص، ص472، 571.

- عدم وجود توافق تام و كامل بين أعضائه بحيث لم تكن السياسة التي انتهجها الحزب تحظى بإجماع كل الشيوعيين بالجزائر لذلك كثيرا ما كانت تنتهي مؤتمراتهم باستقالات جماعية و فردية لمناضليه و حتى قياديه ¹.

- سيطرة الذهنية الاستعمارية على مناضلي هذا التنظيم بنفس القدر الذي لم يكونوا فيه مقتنعين بالمبادئ الشيوعية ، مما نتج عنه فلسفة هجينة و ضيقة لمفهوم الوطنية و الثورة ². و أدى إلى ضعف استيعاب الشيوعيين خاصة لمفهوم الثورة التي قصروها على الثورة الاجتماعية و هو ما يتعارض مع الشيوعية اللينينية التي ترى "بأن الذي ينتظر ثورة اجتماعية فقط ، سوف يطول انتظاره ، فهذا ثوري بالكلام لا يفهم الثورة الحقيقية".

نخلص من كل ما سبق أن نشاط التنظيم الشيوعي بالجزائر إلى غاية منتصف الثلاثينات لم يتعد حدود الدعاية و التحريض على الثورة دون أن يقدم شيئا ملموسا في هذا الصدد ، ولعل ذلك راجع في نظري إلى محاولة هذا الأخير التوفيق في عمله بين خطه الإيديولوجي و بين مطامح الأهالي، دون أن يمس بجوهر المصالح الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ، إلا أنه لم يفلح في تحقيق أي هدف مما ذكر على الأقل إلى غاية تاريخ انفصاله عن الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1936 ، ذلك الانفصال الذي لم يكن له أي أثر على تغير موقفه من القضية الوطنية بحيث ابتعد الشيوعيون أكثر عن القضية الوطنية ،

¹ كما حصل في مؤتمر 3 مارس 1926 .

² لقد كانت هناك قناعة عند الكثير من الشيوعيين بأن وجود الاستعمار يعتبر ضروري بالنسبة للشعوب المستعمرة ، و من ثم فإن دعم الاستعمار في نظرهم هو ليس تعارض مع مبادئهم بقدر ما هو ضروري لبلوغ الأهالي مرحلة النضج التي تؤدي حسب اعتقادهم إلى "صراع الطبقات" (لأن الاستعمار يعمق الهوة بين طبقات المجتمع) ، و هو الأمر الذي كان في نظرهم لا يزال مبكرا ، و من ثم لا جدوى من القيام بالثورة لأنها سوف تكرر هيمنة الطبقة البورجوازية ، و إن حالفها الحظ و نجحت فإنها سوف تستبدل هيمنة البورجوازية الامبريالية ببورجوازية محلية أو بصراع عرقي ديني ، و كلتا الحالتين هما أمر غير مرغوب به عند الشيوعيين الذين سيكون عليهم محاربتها ، و من هذا المنطلق يمكن فهم امتثال الشيوعيين للمثل القائل "لا تبدل حصانك الأعور بآخر أعمى" .

إن هذا الأمر فيه تبرير غير منطقي لانحراف الشيوعيين ، و مغالطة كبيرة لم يرد الشيوعيون من ورائها حسب اعتقادي سوى توظيفها كفضاعة لصرف نظر الأهالي عن التفكير في الثورة على الاستعمار .

أين تخلوا عن دعم حق الشعوب في تقرير مصيرها ، و باتت دعايتهم للثورة أكثر فتورا من السابق ، و في المقابل أكثر تحمسا للإدماج¹ ، و معاداة للوطنية التي غدوا أكثر جرأة في نفهمها و التأكيد على عدم وجودها بعدما صاروا يروجون لنظرية "الجزائر أمة في طور التكوين"².

3 - بعض أسباب فشل الحزب الشيوعي في التموضع بالجزائر :

إن من أهم أسباب فشل هذا الحزب في التموضع بالجزائر على الرغم من قدم نشاطه بها مقارنة ببقية الأحزاب الوطنية الجزائرية هي كثرة الأخطاء التي وقع فيها الشيوعيون ، و لعل أهم هذه الأسباب بالإضافة للتي ذكرت في سياق هذا العرض ما يلي :

- التردد الكبير الذي شاب موقف الشيوعيين بالجزائر من القضية الوطنية ، بحيث كلما أظهر تعاطفا مع الأهالي بهدف جذبهم قابله نفور من المناضلين و المتعاطفين الأوروبيين مما جعل القاعدة الشعبية لهذا الحزب تراوح مكانها ، و حال دون تموضع الحزب في الجزائر بالشكل الصحيح الذي يسمح له بالنشاط بشكل حيوي و فعال .

- عدم قدرة الحزب على إقناع الجماهير المسلمة بأفكاره لعدم امتلاكه لأداة فاعلة قادرة على النفوذ داخل الأوساط الأهلية و الاتصال بهم و مخاطبتهم باللغة التي يفهمونها ، حيث كانت دعايته المكتوبة ضعيفة (الفرنسية) تعجز جموع الجماهير الأمية عن فهمها ، بالإضافة إلى عجز الدعاية الشفهية لعدم امتلاك الحزب لعدد كاف من الإطارات المعربة القادرة على نشر أفكاره ، يضاف إلى كل هذا الغياب الشبه التام للشعارات الدينية و القومية كتلك التي كان يوظفها العلماء المصلحون و النجميون ، بل على العكس من ذلك فقد أعلنوا صراحة معاداتهم لمثل هذه الشعارات التي اعتبروها بالية و سببا في تخلف الأهالي و تأخرهم ، و اهتموا بدلا منها بقضايا و شعارات لا تمت بصلة

¹ لقد أعلن الشيوعيون في بيان لهم في أكتوبر 1936 بأنهم مع حرية الشعب الجزائري لكن في إطار وحدة أخوية مع الشعب الفرنسي "الكبير" ، في الوقت الذي تخلوا فيه كلية عن أطروحة الاستقلال بحجة ظهور الخطر الفاشي و النازي ، أين رأوا بأن الأولوية تقتضي محاربة هذا الخطر قبل العمل على استقلال الجزائر ، لأنه في حال نجاح هذه الأنظمة الديكتاتورية فإنها ستستولي على هذه المستعمرات .

² أعلنها "موريس توريز" في 11-02-1939 أين ادعى وجود 20 عرق تتشكل منه الأمة الجزائرية ، و هي النظرية التي ظل الشيوعيون يروجون لها إلى غاية السنوات الأولى من الثورة ، و لم يعدل عنها صاحبها إلا في 06-05-1956 . للتعرف أكثر على هذه النظرية أنظر : مولود قاسم نايت بلقاسم : ردود الفعل الأولية داخلا وخارجا على غرة نوفمبر ، ط1 ، دار البعث ، الجزائر ، 1984 ، ص25.

مباشرة بالجزائريين المسلمين مما جعلهم يبدون بعبيدين عن المشاغل الحقيقية للجزائريين ، و أدى في النهاية إلى نفورهم من هذا الحزب .

- نظرة الاستصغار للسكان الأهالي و اتهامهم بالقصور عن فهم المبادئ الشيوعية بالنظر إلى مستواهم الفكري و حالتهم المعنوية و سيطرة التعصب الديني عليهم ، و هي الاعتبارات التي علق عليها الشيوعيون أسباب فشلهم بالجزائر دون أن ينسبوا شيئا من إخفاقاتهم على أنفسهم¹ .

- عدم الارتباط و حتى التواصل مع بقية الحركات الوطنية ناهيك عن الاندماج معها في معترك الحقل النضالي ، و الاكتفاء بإقامة علاقات طارئة أو عابرة ، مما جعل الحزب يفقد الاتصال بهذه التنظيمات الوطنية و من ورائها الجماهير المتعاطفة معها، و بمرور الوقت تطوّر هذا الوضع لدرجة فقد معها الشيوعيون بالجزائر الصلة بالواقع الذي كانوا يعيشون فيه و أدخلتهم في عزلة سياسية باتوا معها أشدّ ارتباطا بدوائر خارجية (فرنسا و موسكو خاصة) .

-خاتمة :

على الرغم من السلبية الكبيرة التي اتسم بها موقف الشيوعيين من القضية الوطنية إلا أن الحقيقة التاريخية و الموضوعية تفرض علينا الإقرار بمجهود هذا الحزب و عدم نفي مساهمته في خدمة القضية الجزائرية بغض النظر عن نوايا هذا الحزب و حساباته و قناعاته في ذلك ، و لعل أهمها أن الرعيل الأول من حزب نجم شمال إفريقيا الذي تأسس بالمهجر سنة 1926 قد تخرج من المدرسة الشيوعية على الرغم من مناقضته لها في التوجه و الإيديولوجية إلا أنه استفاد من وسائلها و الغطاء الذي كانت توفره لهم ، بالإضافة إلى اتخاذ مواقف ايجابية من بعض القضايا التي كانت مطروحة كالتنديد بالاحتفال المثنوي ، و فضح غطرسة بعض الكولون و تلاعبات الإدارة الفرنسية ، و استماتته في الدفاع عن بعض المطالب لاسيما الاجتماعية منها كالحق النقابي ، المساواة في ساعات العمل ، تعميم تطبيق القوانين الاجتماعية المعمول بها في الميثروبول ... ، مما جعله يعتبر من بين أكثر التنظيمات السياسية الفرنسية إلى جانب الاشتراكيين

¹ إن هذا الادعاء باطل لأن الأهالي تمكنوا من الاستجابة لدعوات الأحزاب الوطنية الأخرى على الرغم من وجود هذه الأسباب التي اعتبرها الشيوعيون معوقات حالت دون نجاحهم بالجزائر .

تحمسا للدفاع عن مصالح الأهالي و الدفاع عن حقوقهم مقارنة بغيرهم من الفرنسيين ، و هو الأمر الذي جعلهم يتعرضون أكثر من غيرهم للكثير من المضايقات و حتى المتابعات من طرف مصالح الشرطة الفرنسية ، و المعاداة من طرف غلاة الكولون و بعض الأوساط السياسية بباريس .

إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن هذه المواقف و المناقب لم تشفع لهم من سهام الانتقادات و الاتهامات التي وجهت لهم لكثرة المثالب و الهنات التي وقعوا فيها و الأخطاء و الانحرافات التي لازمتهم منذ البدايات الأولى لظهورهم ، و التي كانت سببا في فشل هذا الحزب و إخفاقه في نهاية المطاف .